Book Review

CC BY NC

L'Islam des Temps Modernes: Retour aux Origines Etude des Finalités de la loi Islamique d'Ibn Achour

ISSN 2831-5049
Vol. 4, No. 1, 2025, p.127-138
journal.maqasid.org
DOI: 10.52100/jcms.v4i1.165
Received : Nov 21th 2024
Revised : Nov 27th 2024
Accepted : Nov 28th 2024

Najma Zaghrioui
Mohamed V University, Rabat, Morocco
zaghrioui.najma@gmail.com

Valli, Clara. (2024). *L'islam des temps modernes : Retour aux origines*. Etudes des finalités de la loi islamique d'Ibn Achour. Paris : L'Harmattan.

باسم الله العليم

تمهيد

توجد الكثير من الدراسات المهمة التي اهتمت بكتاب "مقاصد الشريعة الإسلامية" للعالم الطاهر ابن عاشور (١٨٧٩م-١٩٧٣م)؛ فقد اهتم به الباحثون منذ صدوره أول مرة بالبحث والتعليق والشرح نظرا لقيمته العلمية وأهميته السياقية. ونحن اليوم كما في الماضي –كأمة إسلامية- في أشد الحاجة إلى مثل هذا السِّفْر، في ظل الأزمات التي بات يعرفها الإنسان المعاصر، الوجودية والاجتماعية، المحلية والكونية، على حد سواء؛ وفي ظل أزمة المعنى التي يعرفها الأفراد والمجتمعات في عالم اليوم، حيث تفككت معاني الدين والقيم ومعنى الإنسان نفسه.

وكتاب "مقاصد الشريعة الإسلامية" -الذي اهتمت به الباحثة كلارا فالي في كتابها الذي نود تقديمه في هذه الورقة-، من أهم ما كتب في المقاصد في العصر الحديث وهو من ثمرات رؤية ابن عاشور الإصلاحية الشاملة التي عنت بإصلاح المجتمع والمناهج التعليمية وبرعاية المبادئ الإسلامية وقضايا الأمة الاجتماعية، والسياسية والاقتصادية والمعرفية. كما أن صاحب "مقاصد الشريعة الإسلامية" جاء ليتم ما بدأه المقاصديون الأولون. فكتاب ابن عاشور يعد حلقة مركزية من حلقات الفكر المقاصدي إلى جانب "موافقات" الشاطبي و "غيات الأمم" للجويني وغيرها من المصادر المعرفية الأصولية التي تعد من المحطات العلمية الفاصلة في مجال المقاصد. بالإضافة إلى هذا فإن مشروع ابن عاشور الإصلاحي وإنتاجه المعرفي -كما عند جل مفكري تيار الإصلاح- يطغى عليه الهم التجديدي وهاجس البحث والتقدم والأخذ

عن الغرب - المتفوق حضاريا وتكنولوجيا- بشكل انتقائي بما يتوافق مع الشريعة الإسلامية؛ وهذا الهم إنما جاء في سياقه كردة فعل طبيعية على صدمة الحداثة وجاءت كتفاعل العلماء والمفكرين آنذاك مع إشكالية تقدم الغرب وتأخر المسلمين.

وبالرغم من أن الأهمية الأبستمولوجية لكتاب "مقاصد الشريعة الإسلامية" يتجاوز هذا الهاجس الإصلاحي الذي فرضه الواقع في حينه، ذلك أن قيمة الطاهر ابن عاشور المعرفية التي تضمنها كتابه تكمن بالأساس في الدعوة إلى الفصل بين أصول الفقه والمقاصد من خلال جعلها علمين منفصلين؛ إلا أنه لا بد للباحث في قضايا التنمية والإصلاح والمهتم بأسئلة تجديد العلوم، أن يرجع لكتاب الطاهر ابن عاشور إذا هو أراد أن يعالج الإشكالات السياقية المعاصرة على ضوء المقاصد؛ خصوصا وأن توجه ابن عاشور الإصلاحي يتسم بروح المسؤولية؛ فكل تنمية وتحديث للمجتمعات الإسلامية ولأفرادها لا بد أن تنطلق من مراجعة شاملة للذات وفحص داخلي دقيق لعوامل الأزمة، عوض التحجج بالاحتلال والعوامل الخارجية؛ على غرار النقد الذاتي الذي قال به علال الفاسي. ولعل هذا من بين ما دفع الباحثة كلارا فالي إلى اختيار هذا الكتاب من أجل دراسته.

السياق

إن الإسلام والمسلمين حاضرون اليوم - بشريعتهم وخطابهم- في واقع بات أكثر تعقيدا وتركيبا وتسارعا من ذي قبل. والسياق الذي يعنى به كتاب كلارا فالي هو السياق الغربي الأوروبي، والفرنسي على وجه خاص؛ بالتالي فإن فالي تأخذنا إلى مساحات تفكير غير معهودة من أجل التدارس في المقاصد؛ ذلك أن الشريعة الإسلامية بحضورها في سياقات العالم الغربي وفي قلب العالم الحديث، تفرض على دارسها أن يقف على معانيها وحكمتها ومقاصدها ويُجَلي البعد "العالمي" الذي يَسِمها بإعادة طرح فكرة صلاحيتها في كل زمن ومكان، كما تجعل دارس المقاصد يعيد طرح القيم التي تود الشريعة أن تحافظ عليها من زاوية نظر كونية، لا من زاوية نظر محلية مرتبطة بسياقاتنا العربية الإسلامية فقط؛ فيوازن بين التقصيد الشرعي ورهانات المسلمين في سياقات أوروبية.

ودراسة المقاصد في سياق العالم الغربي تُمَكن أيضا من استشكال القيم التي توليها الحداثة الغربية بالاهتمام الفكري والتأصيل النظري. كما تسمح دراسة المقاصد في سياقات مغايرة من إعادة التفكير في

Copyright © 2025 JCMS

معنى الإنسان ومغزى وجوده وتكليفه من وجهة نظر إسلامية، لا من وجهة نظر الحداثة الغربية التي تستمد هذا المعنى من العقل وحرية الإنسان بعد تغييب الإله.[١]

إن كتاب كلارا فالي يأتي في سياق تاريخي مهم على المستوى المعرفي، حيث يتيح اللقاء الحضاري بين الإسلام والغرب الأوروبي تفاعلا على مستوى الأفكار والأيدولوجيات الدينية والعلمانية.[٢] وبالرغم من ذلك، فعلاقة الإسلام اليوم بالمجتمعات المعاصرة الأوروبية - والفرنسية خاصة- علاقة متوترة، لاعتبارات أيديولوجية وتاريخية، إذ يعتبر الفاعل السياسي والاقتصادي في السياق الفرنسي الشريعة كمنظومة غير متلائمة مع الحداثة الغربية، وتتعامل الأوساط الثقافية والإعلامية هناك مع الشريعة باعتبارها قانونا إسلاميا تقليديا يشكل عائقا أمام هذه الحداثة وقيم الأنوار.

إن الشريعة في رؤيتها للعالم تقف على طرف نقيض من قيم الحداثة وقيم الجمهورية. وهذا ما يطرح إشكالات كبرى، لا على المستوى المعرفي فحسب، ولكن أيضا على مستوى المعيش اليومي للأفراد في المجتمع الفرنسي والأوروبي بصفة عامة. إن حضور أجيال من المسلمين منذ عقود، نتيجة عامل الهجرة، جعل فرنسا من أكثر البلدان إيواءً للمسلمين؛ وجعلها أيضا من أكثر البلدان التي تعرف نقاشات عمومية حادة حول الإسلام والمسلمين، تصل حد التشنج.

فالمسلم في هذا البلد، بسبب دينه، متهم بكونه عصيا على الذوبان في المجتمع وغير قادر على التأقلم مع المجتمع العلماني الحداثي الذي يعيش فيه؛ أو بالأحرى مع المجتمع الذي بانت منتميا إليه.

أهمية الكتاب

يعد كتاب كلارا فالي "L'islam des temps modernes: retour aux origines. Etude des finalités de la loi islamique d'Ibn Achour"، الذي يشتمل على ٢٠٧ صفحة منشورة سنة ٢٠٢٤ عن دار النشر الفرنسية L'Harmattan [٣] والذي نود تقديمه للباحث العربي في هذه الورقة، من تلك البحوث العلمية التي اهتمت ب "مقاصد الشريعة الإسلامية" بالقراءة والتحليل. وهو معالجة لأطروحة ابن عاشور من خلال مقاربة مفاهيمية-قيمية، أي أن فالي لم تحلل أطروحة ابن عاشور الأصولية

[١] راجع مثلا كتابات جون بول سارتر في هذه الفكرة المحورية في الفكر الغربي

[٢] نويوار، يوسف. إشكالية تدبير الشأن الديني بفرنسا (٢٠٢٤)، الرباط، المغرب: دار الأمان

[3] Valli, Clara. (2024). L'islam des temps modernes : Retour aux origines. Etudes des finalités de la loi islamique d'Ibn Achour, L'Harmattan.

Copyright © 2025 JCMS

في المقاصد إنما أرادت أن تدرس الشريعة الإسلامية من زاوية القيم الإنسانية الكبرى، محاولة التقريب بين قيم المجتمعات الحداثية والقيم التي جاءت بها الشريعة، مستعينة من أجل ذلك بفكرة المقاصد وبالكليات الخمس. فهي تعتبر أن الشريعة تستمد معناها وراهنيتها من خلال هذه القيم العليا الكونية التي تعكسها الكليات الخمس. وبينت فالي أن لكل كلية من الكليات (حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال) قدرة، كلما دعت الضرورة السياقية (الزمانية والمكانية) إلى ذلك، على استيعاب قيم جديدة تدافع عنها المجتمعات المعاصرة، كالكرامة والعدل وقيم حقوق الإنسان. كما أن لهذه الكليات الخمس قدرة على تبرير الحاجة إلى التقدم في جميع مجالات الحياة.

ولهذا الكتاب خاصيتان منهما يكتسب أهميته: فالأولى أنه موجه للباحث الناطق باللغة الفرنسية، أي إلى باحث ليست له خلفية فكرية وثقافية عربية بالضرورة ولا ينتمي للواقع العربي-الإسلامي، بالتالي فإن تفكيره في المقاصد وحاجته إليها يأتي في سياقات معرفية ورهانات مجتمعية مختلفة ونوازل مغايرة تنتمي للسياق الأوروبي عموما والفرنسي خصوصا. أما الخاصية الثانية فهي أن كلارا فالي انتهجت في كتابها مقاربة للمفاهيم القيمية المركزية (كالعدل والحرية والكرامة) من زاوية تداخل المرجعية التقليدية والحديثة. هاتان الخاصيتان تنقلان التفكير في المقاصد من سياقاتنا المحلية الإسلامية إلى سياق آخر أوروبي وعالمي. وهي بالتالي تضع المسلم المعاصر ونوازله في قلب العالم.

كما يسمح كتاب فالي بالوقوف عن قرب على نموذج من التوظيفات الأيديولوجية للخطاب العلماني والتحديثي، ولعل كتابها هذا نموذج لمثل هذه التوظيفات المعاصرة؛ وهذا ما يتيح للباحث في الفكر المقاصدي أن يتفاعل مع مثل هذه الأعمال الجادة بالنقد العلمي من داخل النسق القيمي الإسلامي ومن خلال منطلقات أصولية.

تتجلى أهمية كتاب فالي كذلك في المنهجية التي اختارتها لمعالجة "مقاصد الشريعة الإسلامية"؛ فقد درست تطبيقات فكر ابن عاشور المقاصدي من خلال ثلاث مستويات متداخلة فيما بينها: الفرد، ثم المجتمع، ثم الأسرة؛ وعند كل مستوى من هذه المستويات قامت فالي بالإحالة على السياق التونسي في خمسينيات القرن العشرين، لتبين أن رهان ابن عاشور إنما هو كان العمل على تحديث المجتمع التونسي. والإحالة إلى هذا السياق الخاص إنما أرادت به فالي كذلك أن تثبت كونية المقاصد وقدرتها على التوفيق بين التقليد والحداثة من جهة، وعلى راهنية فكر ابن عاشور من جهة أخرى.

Copyright © 2025 JCMS

يضم الكتاب ثلاثة أجزاء وستة فصول في مجموعه، حللت فيه الكاتبة مقاصد الشريعة عند ابن عاشور من خلال ثلاثة مجالات وقفت عليها مطولا وأفردت لكل مجال جزءا كاملا من التحليل (الفرد، المجتمع، الأسرة). وحاولت في كل مرة أن تسلط الضوء على البعد القيمي التي تسعى الشريعة الإسلامية لتحقيقه، لتبين وسع الشريعة في استيعاب قيم جديدة. والشريعة في رأي كلارا فالي لا تعارض الحداثة بل على العكس من ذلك، فهي تتسم بالمرونة لقابليتها على التكيف معها وعلى التأقلم مع مستجدات حياة المجتمعات المعاصرة.

عالجت في الجزء الأول من الكتاب مكانة الفرد في "القانون الإسلامي"؛ ثم تدارست في الجزء الثاني المقاربة المقاصدية للمجتمع. أما الجزء الثالث والأخير فقد خصصته للأسرة ورهاناتها وأهدافها في الاسلام.

مضمون الكتاب

تنطلق كلارا فالي في دراستها من فرضية تفتح مساحات أخرى للتفكير والنقد حين دراسة المقاصد. إن الطاهر ابن عاشور في رأي فالي قد عمد على الالتزام باللغة الفقهية التقليدية من أجل إقناع قارئه بفكره الحداثي. كما عمد ابن عاشور بالنسبة لفالي على التوسل بالمقاصد من أجل الدفاع عن رؤيته الحداثية للفرد والمجتمع والأسرة. وهي تريد بذلك من خلال هذه الفرضية أن تبين أن للكليات الخمس سمة كونية، وهي توافق القيم الكونية التي تأسست عليها المجتمعات المعاصرة، وهي تقصد المجتمعات الأوروبية.

إن كونية القيم التي تقصدها الشريعة بالحفظ هي التي جعلت ابن عاشور يخوض فيها من أجل الدفاع عن ضرورة إصلاح المجتمع التونسي وتحديثه.

الفرد والحداثة والقيم

يتوسل الطاهر ابن عاشور إذن حسب فرضية فالي ببنية الخطاب الديني التقليدي من أجل الدفاع عن مقاربة حداثية للفرد، مستعينا بمعجم لغوي حديث يدمجه في خطابه الفقهي. إن لغة ابن عاشور الفقهية وسيلة إجرائية للدفاع عن رؤيته الحداثية. وبهذا فإن للمقاصد دورا وظيفيا يعمل على التقريب بين القيم الغربية ومبادئ الإسلام؛ من خلال فهم جديد يسمح أيضا بأنسنة التعاليم النبوية.

استخدم الطاهر ابن عاشور مفردة "الفرد" في مواضع من كتابه عوض "المسلم" أو "المؤمن"، وعلى قلة هذا الاستخدام الذي يكاد يكون هامشيا، إلا أن فالي تراه رغم ذلك تحولا في إدراك الذات،

Copyright © 2025 JCMS

ذلك أن صاحب "مقاصد الشريعة الإسلامية" قارب الإنسان من خلال وجوده الفردي لا من خلال معتقده الديني فقط في نظر الباحثة؛ فهو مسلم ومواطن مشارك في مجتمعه. كما أن الحديث عن الفرد يتيح من جهة أخرى الحديث عن العقل وعن الحرية الفردية وكذا عن المسؤولية الفاعلة في الحياة السياسية والاجتماعية. إن الفرد بهذا قادر على إحداث تغيير في ظروفه باعتباره فاعلا ومسؤولا في المجتمع؛ فهو مواطن مسؤول ونشيط في الحياة السياسية والاجتماعية. وهي الفكرة التي ركز عليها الجزء الأول من كتاب فالي، وهي فكرة تأتي منسجمة مع إشكالات الواقع التونسي تاريخ صدور "مقاصد الشريعة الإسلامية". ومنه القول إن قيم الفرد التي يتبناها الطاهر ابن عاشور هي قيم تدخل في إطار فلسفة أخلاقية إنسانية وكونية؛ وأن هذه القيم هي نفسها –حسب قراءة فالي- القيم التي جاء بها الوحي.

كما أن للشريعة، بدءا بالتعاليم النبوية، حمولة قيمية تربوية؛ إذ تريد من الفرد، عن طريق الإلزام أو الردع، أن يجد لنفسه مكانا في المجتمع يساهم من خلاله في تحسينه ويعمل من أجل الصالح العام من خلال التحلي بقيم العدل والمساواة ودرء الفساد...الخ.

ويعتبر ابن عاشور أن جمود الشريعة وعجزها عن مسايرة الحاضر وعن التنمية وكذا إعاقتها لإنتاجية الأفراد سببه راجع إلى فصلها عن السياق الحديث الذي بات يعيش فيه أفراد المجتمع التونسي. أما إذا قورب "القانون الإسلامي" على ضوء كونية القيم، فلا بد له من أن يستعيد قابليته للتكيف مع متطلبات العصر وحاجات الأفراد.

وبالتالي فإن كلارا فالي ترى استنادا على كتاب "مقاصد الشريعة الإسلامية" أن المقاصد هي نفس ما تسعى إليه الحداثة، وأن دورها هو تحقيق المصلحة من خلال الحفاظ على الكليات الخمس؛ إن المقاصد بهذا تعكس قدرة الإسلام على مسايرة كل العصور وتلبية حاجات الفرد المسلم كما تعكس قدرتها على المساهمة في رفاهية الفرد المادية والمعنوية وكذا تحقيق المساواة بين الناس والكرامة والسعادة؛ عن طريق حفظ القيم الأخلاقية التي يدافع عنها الدين وعن طريق حفظ النفس والعقل. بل إن فالي ترى أنه يمكن أن نستشف من زاوية نظر قيمية مجموعة من التقاطعات بين الفقه والتشريع الأوروبي.

الصالح العام والمجتمع

وللطاهر ابن عاشور رؤية حداثية المجتمع. وتعريفه لمكونات المجتمع تعريف موسع، بحيث أن لهذا الأخير بعد كوني يشجع على الحوار بين الثقافات. فمفهوم الأمة يحيل على مجتمع من الأفراد ولا يقتصر تعريفه على

Copyright © 2025 JCMS

مجموع المسلمين. ويكمن دور جميع أفراد المجتمع في تحقيق التماسك داخله وإصلاحه. إن حفظ النفس والعقل التي تصبو اليهما الشريعة إنما جاءت من أجل جعل الفرد يفكر ويشارك في تنمية المجتمع الذي يعيش فيه. كما أن ضرورة التنمية الصناعية والمحافظة على الموارد الاقتصادية والجماعية للأمة، لا بد أن تتحقق بواسطة قيم التضامن بين الأفراد والمساواة والأخوة؛ وهاتان الأخيرتان هي عينهما قيم الجهورية الفرنسية.

إن للمقاصد دور في استقرار المجتمع اقتصاديا وأخلاقيا؛ وللإسلام نظرة أخلاقية للمال، فالخيرات من فضل الله وليست ثمرة العمل. لذا كان حفظ المال واجب اتجاه الله، بجانب حفظ النفس، به تتحقق المصالح المادية من رفاه وسعادة ويتحقق التقدم الصناعي والاقتصادي وتتطور البنيات التحتية الأساسية وتتحسن الصحة العامة.

إن الفقه في شقه المعاملاتي قادر على التكيف مع النموذج الاقتصادي الحديث لكنه يتميز عنه، بفضل المقاصد، ببعده الأخلاقي. ومقاصد الشريعة من جانب آخر لا تعارض فكرة تراكم الخيرات- بل تشجعها- ولا تعارض مفاهيم حديثة كالثروة أو المِلكية، كما أنها تسمح للشريعة بأن تكون لها القدرة على استيعاب الأيديولوجيات الاشتراكية أو الرأسمالية على حد سواء لما لها من خاصية التأقلم.

بالتالي فإن الكليات الخمس تصير حسب فالي آلية وظيفية من أجل الدفاع عن الحداثة في تونس. والقيم الإسلامية التي تؤطر المجتمع تتجاوز عند ابن عاشور الإطار الديني المحض، فهي وسيلة لرفاهية المجتمع وأفراده المادية والمعنوية؛ ما يتيح لهذه القيم الإسلامية استمراريتها في كل زمن وفي كل مكان.

الفرد والمجتمع والأسرة

بعد أن قدمت كلارا فالي قراءة لمقاصد الشريعة انطلاقا من الفرد ثم من المجتمع حسب مقاربة الطاهر ابن عاشور، خصصت الجزء الأخير من الكتاب لتتحدث فيه عن الأسرة ومقاصدها، باعتبارها حافظة لتماسك المجتمع ولصحة الأفراد النفسية، وباعتبارها ضامنة لحقوق وكرامة المرأة والأطفال.

إن الأسرة تهدف بدورها إلى حفظ الكليات الخمس ومن خلالها يستطيع الفرد تحقيق المصلحة الخاصة والعامة. فبفضل موقعها بين الفرد والمجتمع، فإنها تتيح للأفراد تحقيق مقاصد روحية وأخلاقية تسمح لهم بحياة نشيطة ومنتجة في المجتمع. فهي تلبي حاجاته الروحية والمادية قصد جعله فاعلا في المجتمع

Copyright © 2025 JCMS

مشاركا في الإصلاح والتنمية. وبهذا فإن حفظ الدين والحياة والعقل والنسل، الذي تعمل الأسرة على تحقيقه، إنما جاءت بها الشريعة من أجل الصالح العام والمصلحة الفردية؛ فالأسرة عاكسة لكل المقاصد التي جاءت بها الشريعة والتي يجب على الإنسان أن يحترمها. بل ولما كان من أركان عقد الزواج الاختيار الحر من كلا الطرفين، فهي تعكس أيضا احترام قيمة الاختيار الحر (الحرية) –خصوصا من جانب المرأة- والذي يعتبر بدوره من القيم الحداثية القادرة على تحويل المجتمع وتطويره نحو الأفضل.

تعقيبا على الكتاب

إن الخطاب الإسلامي المعاصر الذي يحاكي الخطاب التنويري والأخلاقي السائد، يريد من الشريعة، باعتبارها قانونا إسلاميا، أن تساوي نظيراتها المعاصرة: مؤسسات حقوق الإنسان، حقوق الشغل وحقوق المرأة والحقوق المرتبطة بكرامة الأفراد والمجتمعات...الخ. كما تعتبر المقاصد اليوم الملاذ المتاح من أجل تطويع الشريعة لقيم الخطاب المهيمن، وجعلها تتبنى المفاهيم القيمية وأنساقها التي تؤطر الخطاب التنويري والأخلاقي المعاصر.

إن كتاب كلارا فالي من البحوث التي تسعى لتوظيف المقاصد توظيفا وقتيا[٤] من أجل حل أزمة الخطاب الإسلامي في عمومه والإجابة عن سؤال تجديده. فبجعلها للسياق التونسي بعد الاحتلال موجها رئيسيا لفهمنا للفكر المقاصدي عند الطاهر ابن عاشور، فهي تجعل من الزمن عاملا مؤثرا حتميا في الشريعة وأحكامها؛ بيد أن هذا التوظيف الوقتي ل "عِلم" المقاصد -عِلم كما أراده الطاهر ابن عاشور- يجعل من الصعب القول بالوظيفة المعرفية للمقاصد. وهذا إنما يعبر بجلاء عن إشكال أساسي حين الحديث عن المقاصد اليوم، فهل هي مجرد أداة للتكييف مع مستجدات العصر وتوجهات واقعه الأيديولوجية وخطابه المهيمن؟ أهي فقط وسيلة لتجديد الخطاب والتوظيف الإصلاحي للمفاهيم التي تتبنى تصورات الآخر الحداثي، كما جاء في كتاب كلارا فالي؟ أم أن المقاصد على نقيض ذلك كله، بحيث أنها "معيار للتنخيل وللقبول والرد"؟[٥]

وينضاف إلى هذا الإشكال الأول إشكال ثان لا يقل أهمية عنه، متعلق بالمفاهيم والمفاهيم القيمية على وجه خاص. إن المقصد مفهوم كلي له خصوصية دلالية فهو يتألف من مجموع العلل الصريحة أو

[٤] الخطيب، معتز. (٢٠٠٧). الوظيفة المقاصدية: مشروعيتها وغاياتها. مجلة إسلامية المعرفة، ١٢ (٤٨)،٩-٣٤

[٥] تلوت، جميلة. (٢٠٢٢). المنهاج المقاصدي إشكالية بناء النسق. مجلة الدراسات المقاصدية المعاصرة،١ (١)

Copyright © 2025 JCMS

المستقرأة -بمعناها الأصولي- التي نصبها الشارع عند الأحكام الشرعية.[٦] ومنه فإن المقاصد مرتبطة ارتباطا وثيقا بالعمل التشريعي. أما بيت القصيد الذي تعنى به المقاصد فهو فكرة المصلحة. وأما حاصل المصلحة فهو إعمال المجتهد جهده العلمي في تعقل الأدلة الشرعية، كتمهيد أساسي في فقهها، تفسيرا وتعليلا واستدلالا.[٧] وهذان التعريفين الموجزين يبينان دقة المصطلحين (المقصد والمصلحة) باعتبارهما ينتميان لحقل معرفي له خصوصياته الدلالية؛ بحيث أن هذا الحقل المعرفي يستند على نسق مفاهيمي منه يستمد نظرياته. فكما للمفاهيم حمولة فكرية، فهي لا يمكن لها أن تُعرف إلا في إطار سياق معرفي وفكري وواقعي محدد.

إن المفاهيم سابقة للنسق النظري الذي تشكله وعاكسة له في نفس الوقت. والمفاهيم القيمية مثل العدل والمساواة والحرية وغيرها لا بد من إعادة ضبط دلالاتها من خلال النسق المعرفي الذي تنتمي إليه الشريعة ومقاصدها؛ وذلك إذا أردنا الخوض في هذه المقاصد. فالمفاهيم القيمية الإسلامية غير المفاهيم القيمية الغربية الحديثة؛ فالأولى تصل عالم الشهادة بعالم الغيب، أما الثانية فتشكلت من خلال مفاهيم "مُعقلنة".

كما أن أهمية مفهوم ما -قيمي وأخلاقي- داخل النسق الإسلامي ليس له بالضرورة نفس تلك الأهمية في النسق الغربي؛ ومثال ذلك أن النسق الأخلاقي الغربي لا يولي للقيم المركزية الناظمة للمقاصد كالإحسان والرحمة والفطرة نفس الأهمية التي توليه لها الرؤية الإسلامية للعالم.

وبعيدا عن القيم، قريبا منها؛ فمفهوم الفرد داخل المجتمع وأدواره وحاجاته وعلاقة الفرد بالمجتمع وبالسلط، غير مفهوم المكلف الذي تربطه علاقات مع أهله وذوي القربى والجار والناس وأولي الأمر، والذي يعمل من أجل دنياه ومن أجل آخرته. وما تطلبه الأنظمة السياسية والاقتصادية من الفرد غير ما تنتظره الشريعة من المكلف. إن مفهوم هذا الأخير أوسع من مفهوم الفرد؛ والمقاصد مرتبطة بأفعال المكلفين. لهذا فاختلاف المرجعية لابد من اعتباره حين الحديث عن مقاصد الشريعة في المجتمعات المعاصرة

[٦] تلوت، جميلة. (٢٠١٩). نظرية دوران الأحكام الشرعية. دراسة أصولية مقاصدية. لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي مركز دراسات مقاصد الشريعة

[٧] الحسني، إسماعيل. (١٩٩٥). نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر ابن عاشور. المعهد العالمي للفكر الإسلامي

Copyright © 2025 JCMS

الحداثية. فلما كانت مقاصد الشريعة تقع في صلب الحديث عن الدين، فإن الحداثة عزلت نفسها مبكرا عنه.

خاتمة

إن المقاصد، كفكرة وكنظرية، مازالت تحتاج إلى مجهود تأصيلي واشتغال جاد في بناء أنساقه المعرفية والمفاهيمية؛ بحيث يتم اعتبار المرجعية الدينية نفسها لا المرجعية المعرفية الغربية. ومنه فلابد أن يتم التعامل معها كمصدر للمفاهيم الإسلامية والمعاني اللازم تفعيلها على أرض الواقع، لا كوسيلة لاستيراد مفاهيم دخيلة بكل حمولتها الفكرية. والمقصود من هذا ليس "الدعوة إلى نبذ كل ما جاء به الغرب"، خصوصا وأن كتاب كلارا فالي جاء في سياق غربي، بل على العكس، فقد حقق الفكر الغربي تراكما معرفيا إنسانيا مهما لا بد من التفاعل معه إيجابيا؛ لكن دون تحيز لأدوات تفكيره –أي لنماذجه المعرفية ولمناهجه ولمصطلحاته-. والمقاصد قد تصير في حد ذاتها منهجا "نقديا" يعمل على تقييم وتقويم الفكر والاعتقاد والسلوك؛ ولعل هذا النهج هو الأقرب تحقيقا للإصلاح وتحقيقا للعمران.

إن هذا الكتاب الذي قدمت فيه قراءة مقتضبة، هو من تلك الأبحاث التي تلح على كل باحث من أجل التفكير في وظيفة الدرس المقاصدي وفي المنهجية المقاصدية وأُسسها، وأخيرا في تجليات المقاصد في الحياة اليومية.

والله أعلم.

Copyright © 2025 JCMS

References

Al-Khatib, Moataz. (2007). Al-Wazifa Al-Maqasidiya : Masyru'itiha wa Ghayatiha. *Majalat Islamiyat Al-Ma'rifa*, 12 (48), 9-34.

El-Bashir, Esam Ahmed (Ed.). (2016). *Applying the Shari'ah objectives in the Da'wah Sphere* (1st Ed.). London : Al-Furqan Islamic Heritage Foundation.

Ferry, L., & Gauchet, M. (2007). *Le Religieux après la Religion : Biblio Essais*. France : LGF.

Hassani, Ismail. (1995). *Nadariyat Al-Maqasi I'nda Al-Imam Tahar Ibn Ashur* (1st Ed.). Al-M'had Al-A'lami Li Al-Fikr Al-Islami.

Nouiar, Youssef. (2024). *Ishkaliyat Tadbi Achoun Al-Islamiya bi Farança* (1st Ed.). Rabat : Dar Al-Aman

Tilout, Jamila. (2019). *Nazaria Dawaran Al-Ahkam Al-Syaria'a : Dirassa Usulia Maqasidia* (1st Ed.). London : Al-Furqan Islamic Heritage Foundation.

Tilout, Jamila. (2022). Al-Minhaj Al-Maqasidi : Ishkaliyat Bina Al-Nassaq. *JCMS*, 1 (1).

Valli, Clara. (2024). *L'islam des temps modernes : Retour aux origines*. Etudes des finalités de la loi islamique d'Ibn Achour. Paris : L'Harmattan.

Copyright © 2025 JCMS

Copyright © 2025 JCMS